سلمان علي التكريتي

نثيث المطر

ازحت ستارة المخمل البنفسجية والاخرى الدانتيل البيضاء، ثم فتحت النافذة واخذت عيناي تلتهمان المارين . كنت انتظر ان تمر لكي الحق بها ؛ فهي لا تدخل البيت ، لانها كانت تخاف جمرات عيني اختي. انصفق باب في الدار المقابلة. ثم فتحت نافذة ولمحت عينيها الخضراوين خضرة البرسيم. مدت عنقها كأنها تتطلع الى الطريق ، لكنها كانت تنظر اليّ، ثم ابتسمت. كانت ابتسامتها حلوة عذبة، تنصب على النفس كما تنصب مزنة مطر على ربع مخضوضر . لكنني مع ذلك كنت لا احبها . لا احب بثينة . وانا لم اكن بانتظارها حينما تطلعت من النافذة . ولا ادري لم كنت لا احبها مع ان اسمها هو اسم امي ايضا . ولكنني لن اقدر . وظلت تبتسم ، وانا اخالسها النظر ولا استجيب .

— يا لك من قاسٍ ، قالت عيناها وقد اسبلت جفنيها .

— لكنك تعرفين باني لا احبك. فهل اكون ضحية لعذابات املاق عاطفي؟ انا لم اجد فيك شيئا يغريني . ان دفق العواطف والمشاعر التي تدّعينها لن يجرفني ابدا . الرجال كثيرون . ابحثي لك عن رجل آخر، فانا لا اصلح لك. لقد عشت سنوات الاغتراب العشر في ظلال اشجار الزيتون الوارفة . اتطلع الى بحار الصمت التي لا تجوبها سفن انوار المحبة . حياتي كلها تجوال في كهوف لم تكن ترتادها اطياف الامل . انا لا اصلح لك ابدا يا بثينة . لاني كنت هاربا من نفسي، متملصا من حقيقتي، بعد ان ضيعتها في مدينتي العظيمة المعظمة. بغداد ، بغدادي. اتعلمين باني عرفت باني اناني ولست انسانيا ؟ احب ذاتي، حتى لو احببتك كما احببت امي . وانا احب ذاتي حتى لو خفت من جمرات عيني اختي . ابدا لم اشعر بانسانيتي يوم كنت في بغداد قبل عشرة اعوام. فكيف اعيش معك؟ انا اريد فتاة طائشة لا تعرفني . وانت فتاة عاقلة ذكية . انت تعرفينني تماما كما اعرف نفسي . وانا بعد ان عرفت حقيقتي ، نفسي ، لا اريد ان يواجهني بها شخص ما كل ساعة ، بل كل لحظة ، حتى لم تتفوهي انت بها . فانا لست غبيا . اقرأه في عينيك ، في نظراتك ، حتى لو كنت تنظفين المائدة من فتات الطعام .

رفعت رأسي بعد اطراقة لم تطل فرأيتها ما زالت عند النافذة ، تعبث بستارتها الارجوانية وعلى شفتيها ملامح ابتسامة كسلى.

— لكني امرأة كأي امرأة، قالت عيناها . لم اجد غيرك . رأيت كثيرا من الرجال

وتطلعت الى عيونهم ، فقرأت مـا تحكي بلمحة عابرة . اما عيناك فبقدر ما تطلعت اليهـا كنت اجد الغازا تحيرني ، وكأنها كانتا تهمهمان . نعم كنت اسمع لعينيك همهمة . كنت اخاف منها ، ولذلك احببتك .

— اوه . ماذا افعل ؟ انا لا احب من تخاف مني ، وابداً تلاحقني . أأمرض كيلا اقوم واتطلع من النافذة ، ولا اخرج اذا رأيتهـا تمر ؟ ولكنهـا ستكون فرصة ذهبية لبثينة . ستلازمني اذا ما عرفت باني مريض . وتظل تتطلع الى عينيّ وتزداد جنونا . انا احبهـا هي — هل سمعتِ ؟ احب الفتاة الاسطورة ، الفتاة التي لا ماضي لها ولا مستقبـل . هي حاضر كله . انت تعرفينهـا . تعرفين من احب . حمدية . بنت السابعة عشرة . هي لا تعرفني ، لا تعرف حقيقتي ، فلا ترهقني بنظراتهـا . لا تعرف عني حتى سنوات الاغتراب العشر . انا احبها لانها تذكرني بسنوات الاغتراب دون ان تدري . احبها لانها تشبه تلك الاندلسية التي احببتها في مدريد . خمرية ، سوداء الشعر ، سوداء العينين ، تقربان من الحور . جيد اغيد وقدّ اهيف . كنت اذا نظرت في عينيها شعرت بانه قد مات كل شيء . حتى الموت كنت اشعر بانه مات . آه كيف فارقتك ايتها الاندلسية ؟ خوليانة . هذا هو اسمها . صرت لاجله احب كل الاسماء الاسبانية . خريستوف . خوليانة . دون كيخوتة . غارثيا لوركا . بالنثيا . سان سلفادور . سلفادور دالي . خوليانة ، من هو سلفادور دالي ؟ ضحكت خوليانة ، وهي تتأبط ذراعي وانا اسير بها على قنطرة شقوبية في مدريد . وانـا اعرف تماما بانها لا تحب السريالية وما فوق الواقع او ما تحت الشعور وحقائق اللاشعور . وحينما تطلعت الى عينيها السوداوين — ماذا ، لقد شرقت عيناها بالدموع . رأيت بلور الدموع بدأ يتلألأ على حافتي جفنيها .

— خوليانة ، لماذا تبكين ؟ لا عليك من سلفادور دالي . عدت تتذكرين عام ١٩٣٦ . ماتت امك في شهر حزيران من ذلك العام . آسف ، فما قصدت الى ذلك . كم كان عمرك آنئذ ؟ لقد نسيت تماما . اربعة اعوام . ما زلت فتية شابة ، بفوح الزهوة ، باشراقاتها ، بوداعتها ، وداعة الصمت على الاسرار . سأعرك اذنك اذا ظللت تبكين . اضحكي . اريد ان اسمع صدى قهقهتك على قنطرة شقوبية . عفوا ، لقد تذكرت . ليس سلفادور دالي هو الذي ذكرك بامك وبالعام ١٩٣٦ ، عام الدم ، عام غـارثيا لوركا . انما قنطرة شقوبية . اذاً دعينا نعود .

— انا اكره سلفادور دالي . واكره قنطرة شقوبية . وانت لماذا تحب المتنبي وتقول انه شاعري المفضل ؟ تقول انه اناني طموح وطماع ايضا . كان مغرورا مداحا ، مـاهيته لا تتفق والمثل الانسانية . اغفر لي يا فاضل ، فانت الذي قلت لي ذلك ، وانـا لا اعرف المتنبي الا منك . سامحني يا فاضل ان احتقرت المتنبي ، فهو ليس بانسان .

احببت خوليانة لجرأتها وصراحتها. ولرقتها ايضا. وصرت اتمثلها نبضة من النبضات الخلاقة تحن لمولد جديد، في عودة الاسطورة بعد ان حاولنا ان نعافها، لكننا لم نقدر ابدا تماما، كما لم نقدر ان نعاف اسطورة الحب. والتفت اليها، فنحن ما زلنا نذرع قنطرة شقوبية:

— ما رأيك في ان نرجع بالترام؟ احس بالرغبة في العودة. لا شك ان البلبل في قفصه في الشرفة قد احتاج الى طعام وماء. مسكين هذا البلبل الوديع، لا يغرد الا حين يرى الماء والطعام.

— لكني لا اريد العودة، قالت خوليانة، وشعرت بان حدقتي عينيها قد اتسعتا من الخوف. الخوف؟ ام من الغضب؟ ام من العجب؟

— لا بد ان نعود يا خوليانة.

ما زال الصباح باكرا، فقد بدأت تواً ظلال الاشجار تنسدل على بساط النور. لكنها قالت: اريد ان اذهب الى قادش على الساحل الغربي. هل تذهب معي؟ اقصد هل رأيت قادش؟

لم ارها ابدا. رأيت الساحل الشرقي فقط يا خوليانة. ورأيت جبل طارق مقابل قادش، ولكنه على الساحل الشرقي كما تعلمين. فرصة مناسبة للذهاب الى قادش. هيا.

لم نأخذ الترام، انما اخذنا القطار. كان يسير في مروج خضر ابدع الانسان في تطريزها بمختلف انواع الاشجار والمحاصيل والازهار، وكانت خوليانة تتأوه كلما رأت اسراب الخطاطيف مبكرة في العودة لان السماء قد اكفهرت بالغيوم.

— لماذا تتأوهين؟ اما رغبت انت بالذهاب الى قادش؟ مدينة هادئة رغم كونها ميناء: هكذا قال لي الدليل مرة ونصحني بزيارتها.

— انا اعرف ذلك يا فاضل، ولكنني تذكرت ابي. سيعود الى البيت ولا يجدني، وسيضطر الى عمل طعامه بيده، فهو لا يرتاح الى الخادم في الطبخ. لا ادري كيف كان يعيش منذ ان فقد امي. لقد كنت في روضة ثم في مدرسة داخلية، وكان لا يأخذني معه الى البيت. فاعتقدت بانه كان متلافا، يطارد النساء، فلا يريد ان أرى هذا. ولكن ظنوني خابت، فقد كان متزنا في سلوكه معتدلا في ملاذه. قلت له: اريد ان اعيش معك، لقد كبرت فيمكنني ان ادبر اموري بنفسي بل و امورك ايضا. الححت، وكان يرفض. وفي مرة تعلقت به وقلت له: اريد ان اقضي الصيف معك يا ابي. فبكى، بكى يا فاضل. لقد تحدرت الدموع من عينيه كما تبكي اية شابة تشعر بان خطيبها لا يحبها. قلت له لماذا تبكي يا ابي؟ لم اكن اصدق ان ابي يبكي. كان مثالا رائعا في عيني. وكنت اراه اكبر من الانسان. لماذا يبكي الرجال، وكيف يبكون؟ هم قساة، يُبكون ولا يبكون. تعلقت به، قبلته في وجنتيه، في جبهته، في شفتيه، وطبعت قبلاتي على يديه. بابا، قل

لي ماذا دهاك ؟ لماذا تبكي ؟ انا لم ارك ضعيفا هكذا . الرجال لا يبكون . ستنغصين عليّ حياتي يا خوليانة اذا دخلت البيت ، قال ابي ؛ انت تشبهين امك تماما ، وكنت احب امك حبا صيرني انفر من المرأة بعدها . لماذا ؟ لست ادري ما مبعث كل ذلك الحب . فاذا دخلت البيت ، فسأرى امك ، اراها دوما ، وسأتالم . ماذا افعل ؟ هو محق وانا محقة . اريد ان اعيش معه واخفف من وحشته ووحدته التي دامت عشرة اعوام . كنت آنذاك في الرابعة عشرة. ومع ذلك الححت عليه. وهو يحبني ولا يرفض لي طلبا .رضي. وعشت معه طيلة هذه الاعوام الثلاثة . وهو هانيء اتم ما يكون الهناء. قضيت على وحدته ووحشته . صار يبكر في العودة ، واذا تأخرت انا لامني وهو يضحك ويوبخني بدعابة وهو يقول : اما تعلمين بان هناك من ينتظرك ويترقب عودتك ؟ فنضحك سوية . والآن سينتظر . وينتظر . ويترقب . ولن اعود . ماذا فعلت بي يا فاضل ؟ وكيف احببتك كل هذا الحب الى درجة اني اريد ان ابتعد عن مدينتي وبيتي وابي هذا الذي لا احب احدا اكثر منه ؟

كانت السماء صاحية حينما ركبنا القطار ، واليوم رائقا من احلى ايام الربيع في اسبانيا وبالاخص في مدريد . ولكن ما ان امضينا هذه الساعات في القطار الى قادش ، حتى ادلهمت السماء واكفهر الجو وبات ينذر بالخطر والمطر. غير ان الشمس كانت تطل بين وقت وآخر ، من الثغرات التي لم تلتئم بعد بين السحب . وحسبنا الامر دعابة ، وان الشمس لا بد طالعة هذا اليوم كما كانت طالعة في مدريد . نزلنا من القطار في محطة قادش في الساعة الرابعة والدقيقة الاربعين تماما . ولكي نذهب الى البحر عند المرفأ كان علينا ان نصرف نصف ساعة مشيا على الاقدام . وصلنا مرفأ قادش ، وكان البحر جميلا جدا . الصفاء تام فوق البحر ، والزرقة ليست غبراء . وفي الصفحة الغربية منه كانت بقعة واسعة اصفى من اللجين ، اذا ما اشرقت الشمس وطلعت عليها . لكن الحركة في الميناء لم تكن نشيطة . لقد نسينا ان هذا اليوم كان يوم احد . ولم يبقَ الا بعض العمال والحراس وبعض بحارة البواخر الراسية تنتظر دورها في الابحار .

اخذ رذاذ المطر ينث نثيثا خفيفا ، لا نكاد نشعر به. لكن الهواء كان شديدا ، فكان النثيث يرتطم بوجهينا بصورة تكاد تكون مستقيمة . وبرد الجو واخذت خوليانة ترتعد. فخلعت معطفي والقيته على كتفيها .

— لا شك انك تشعرين بالبرد ، اليس كذلك يا خوليانة ؟

— والخوف ايضا . انا خائفة ، ولا ادري مما ولماذا ؟ احبك واخاف عليك من حبي .

— لا افهم ما تقولين يا خوليانة . انا احبك اكثر مما تتصورين . احبك كما احببت نفسي . فلماذا تخافين عليّ من حبك ؟ لن تغلّبيني ؛ انما انا الذي اغللت نفسي واغللتك

معي. احبك حين تبتسمين وتشرق في خديك تلك الغمازتان، فتداعبان رغبتي وتدغدغان اشتهائي . وهل تعلمين اني احبك حينما اراك تبكين ؟ حينما ارى الدموع تترقرق في عينيك ، اشعر بان كل قواي تخور اذا لم اضمك الى صدري واضع انفي اسفل اذنك فاشم فوح شعرك وعبير عنقك . اتذكرين يوم كنت تبكين ، ومسحت عينيك من الدموع بذلك المنديل الابيض الذي ضمخته لي اختي في بغداد برائحة القرنفل ؟ كان ذلك اليوم باردا ايضا والريح شديدة والجو مكفهرا. لقد بكيت لانك شعرت باني غضبت منك. تتذكرين، اليس كذلك ؟ لقد آلمني بكاؤك . وشدني الشوق اليك حين رأيت الدموع وقد شرقت بها جفونك، فهصرتك بين ذراعيّ ، ثم لما شممت فوح شعرك وعبير عنقك دغدغت ذلك الجيد بشفتيّ ، فصرخت وانت تضحكين ، لانك عرفت باني غفرت لك . وصرت كلما تودين ان تعرفي مدى رضاي، تقربين لي جيدك . والآن ما زلت ترتعدين يا خوليانة. البرد ليس شديدا الى هذه الدرجة ومعطفي على كتفيك .

— الخوف ، قالت خوليانة . انا ارتعد خوفا . ولا ادري مأتى هذا الخوف . خذني بين ذراعيك كما كنت تفعل في كل مرة ، ضمني الى صدرك ، قبلني ، اهصر جسمي ، شد عظامي اكثر فاكثر ، لاشعر بانك قربي واني قريبة منك .

كان شارع الميناء خاليا تماما من المارة ، وكانت الشمس قد اشرفت على المغيب . كانت الريح تطفطف بثوب خوليانة فتداعب حواشيه ساقيّ، وتلفهما كما تلف ذراعاي صدرها. وظلت هذه الحواشي تشدني اليها ، الى خوليانة ، كأنها تريد من ساقيّ ان تقبلا ساقيها كما اقبلها انا . لقد طبعت قبلات لا عدد لها على شفتي خوليانة وهي ترتعد خوفا وطبعت قبلات على وجنتيها وانفها وفوديها . آه، ما زلت اذكر تلك الضمة، حينما اقتربت بانفي من فودها الايسر، فاذا بفوح شعرها يغرق انفاسي في جنائن الشوق. ولم اتبين من همساتها شيئا، ولكني فهمت كل ما كانت تريد البوح به اليّ. ثم سرت انتعاشة على منحدر ظهرها واضطربت ساقاها بعد ان هادنت الريح ثوبها فانتفضت حواشيه وفكت اسار ساقي. لكن هذه المهادنة لم تطل ، اذ سرعان ما ازدادت الريح شدة ، واخذ الرذاذ يرتطم بوجهينا بقوة. بدأ نثيث الرذاذ يزداد، وارض الشارع تموج بالمياه. لا شك انها ليست مياه الامطار انما هي مياه البحر . فقد كانت الامواج تتلاطم بين الرصيفين ، صافية . وقد عرفت انها مياه البحر، لاني حينما تلمظت ومصصت شفتيّ كان الماء المالح على شفتيّ . انا لم ارَ يوما البحر يمطر . لقد رأيت في بلادي ، في بغداد ، السماء تمطر . تسح مطرا لا رذاذا . لم ارَ مثل هذا الرذاذ ابدا في بلادي . لقد تميزت يا قادش بهذا الرذاذ . انه جميل جدا وعجيب جدا ، يشبه تماما نثيث الثلج في لندن حينما كنا نعود بعد منتصف الليل الى بيوتنا ، نسير الهوينا على الارصفة النظيفة . منظر جميل جدا ان نرى هؤلاء العائدين كل ليلة وقبعاتهم قد

طرزها هذا النثار النظيف من الثلج . هذا هو جمال لندن . اما قادش فكان جمالها بهذه العاصفة . حينما اخذ يتقاطر المطر من اعلى ومن اسفل ، كانت مياه البحر ترتفع ممتدة في الفضاء عدة امتار بحيث صارت تعبر ارصفة المرفأ، وتقذف الريح نثرها الى ما بعد الارصفة، وحتى الاراضي المرتفعة نسبيا ، تتسلقها الامواج ببساطة . واكتسحت جميع منعطفات المدينة ، وغسلت جميع شوارعها وازقتها . فصار الماء الذي يجري بين الارصفة صافيا . كنت اشعر بالبهجة وانا انظر اليه وهو يتماوج ويقاوم الريح للارتداد الى البحر ثانية .

هل هو فرح ام اسى ذلك الذي غمرني ، وخوليانة تشد على ذراعي بقبضتها اليمنى ، وتطوق محزمي بذراعها اليسرى ؟ كنت انظر الى صفاء الماء على ارض الشارع ، والريح تضرب به فتكسره موجات تترقرق على الاسفلت ، كأنه اللؤلؤ . اشتهيت ان انحني واغرف من هذا اللؤلؤ . اشتهيت ان اشرب من هذا الماء الصافي شربة تروي ظمأي . اشتهيت ان اغسل به جسمي . ماذا هناك يا خوليانة ؟ لقد شعرت بان قبضتها تشد على ذراعي بقوة . كانت الدموع تترقرق في عينيها ، صافية صفاء البحر ، غامرة غمرة مياهه .

وحينما رفعت عينيّ ، تسلقت نظراتي الشباك الذي يواجهني . كنت قد نسيت بثينة . تماما كأنها لم تكن موجودة . كانت دموعها ايضا تترقرق في عينيها . لكنني لم اجدهما بصفاء البحر ولا بغمرة مياهه . ماذا افعل ؟ انا لا احبها . وهي تحبني . ولم اكن اتصور قبل هذه الساعة ان هناك من تحبني وتبكي من اجلي ، تبكي مني . صحيح اني كنت اتصور انه يمكن لواحدة ان تحبني — وربما تحبني اكثر من واحدة ايضا ، لكنني لم اتصور ابدا ان هناك من تبكي ، من تتألم ، وانا لا استجيب لها ، لاني لا احبها . بئست تلك الساعة التي احببتني فيها يا بثينة . انا لم اتكلم مع حمدية يا بثينة ، رغم انها تشبه خوليانة ، وانا لا اريد ان اكلمها ولا اريد ان اعرفها واعرّفها بنفسي — اشك انك تفهمين ما اعني. انا ما زلت اعيش سنوات الاغتراب. ما زلت اشعر باني خرجت من نطاق ذاتي، وتمردت على حقيقتي بعد ان تحددت ماهيتي . صرت لا اؤمن بان هناك حقيقة للانسان ، ذلك الانسان التافه ، بحقيقته التافهة ، لاني اعرف بان ذلك الانسان الذي كان يؤمن بحقيقة الانسان التافهة ، كما يؤمن بالاله ، قد مات . اما من يريد ان يعيش للحقيقة فلا شك انه يعبث في دوامة ترهية . ومع ذلك فالحقيقة وحدها هي الحب . لان الانسان العاقل في مصيدة العقل ، والانسان الجاهل في ضباب العاطفة ، كل منهما راضٍ بما آل اليه مصيره ، لا يتمرد على هذا المصير ، ولن يتمرد ، لانه سيجيء يوم يلتقي فيه الانسانان في نهاية الطريق: لا في منتصف الطريق او في مفرق الطرق — في نهايتها، لاشك في ذلك. وعندئذ تكبح جماح نفسه . العاقل والجاهل هما سواء في المصير ، لانهما سواء في الكينونة، وسواء ايضا في الماهية التي لن تطيق ان تحدد حقيقة الانسان .

حينما كان البحر يطفح بمائه المالح على الشوارع والازقة في قادش ، وخوليانة تبكي ، والماء المالح ، دموعها ، تترقرق في عينيها ، شعرت بارتعاشة جفون الصمت التي تمددت في اعماقي طيلة سنوات الغربة تنساب ثانية انسياب المياه في الساقية . ان هذا البكاء يعود بي الى اسطورة الانسان الاول . لذلك احببتك يا خوليانة ، لانك اسطورة تقع منفردة بين الاساطير . انت تذكرينني باساطير بلادي ، فاتذكر بغداد — بغدادي التي هي اجمل من كل امرأة ومن كل حسناء في غلالة شفيفة .

الاسطورة، الخرافة، الترهة، البكاء، خوليانة . ولم لا ؟ البكاء وخوليانة اسطورتان ، لذلك احببتهما. ولكنهما لا تبكيان. خوليانة لا تبكي مثل نساء بغداد، بكاء موحدا منغما تؤديه مجموعة كبيرة من النساء . قلت ذلك مرة لخوليانة حينما كانت تبكي ايضا . وحينما سمعت حديثي ذاك اخذت تضحك ، لان طريقة البكاء تلك لم تألفها ولم تعرفها. لم تتصور ان تلتقي نساء في مجموعة كبيرة لا تسعهن باحة الدار ، وهن يجلسن القرفصاء ، ويضعن خمرهن على وجوههن ، ثم يبدأن بالبكاء في وقت واحد وباسلوب واحد وبنغم واحد ، ويرتلن كلاما بكائيا منه الموزون ومنه غير الموزون ، ابدا لا يقل روعة وجمالا وخشوعا عن الالحان الكنسية التي ترتل ايام الآحاد بمصاحبة الارغون. كنت اشعر حينما اسمع بكاء النسوة اني ابكي معهن. لا ادري لماذا . هذا حينما كنت صبيا، وحينما كبرت صرت اطرب لهذا البكاء الملحن المنغوم ، كما لو كنت استمع الى اغنية حب صافية العواطف .

انا لا ادري أهو بكاء بثينة الذي ذكرني بخوليانة ، عندما كانت تبكي عند مرفأ قادش ذلك اليوم العاصف ، ام ان صورة خوليانة وهي تبكي ، ورذاذ المطر ينث على وجهينا ، هي التي جعلتني ارفع بصري الى بثينة فاراها ايضا تبكي . لماذا تبكي المرأة دائما ؟ كأنما هي جبلت من اسطورة البكاء : اذا فرحت بكت ، واذا احبت بكت، واذا غضبت بكت، واذا كرهت بكت ، واذا التقت بكت ، واذا فارقت بكت . لماذا ؟

— لماذا تبكين يا خوليانة ؟

— اخاف من الفراق .

— ومن قال اننا سنفترق !

— انك شرقي . تحب بلدك . الم تقل لي مرة : بغداد العظيمة المعظمة ، احبها كما احب امرأة حسناء ! اما قلت لي انك تحب الشاعر المتنبي، ذلك الذي قصائده ، قلت ، انفس واثمن واجمل من قلائد الماس والزبرجد والياقوت على جيد الحسناء؟ انك لا بد ان تعود الى وطنك ، الى بغدادك العظيمة المعظمة .

— وهل تعلمين يا خوليانة ما هي غلالة بغداد الشفيفة ؟ هي العواطف الترابية التي تحيطنا في كثير من ايام الصيف ، فنرجع الى البيوت وشعورنا مكللة بالغبار، كما كان يكلل

قبعاتنا في لندن نثيث الثلج . ولو كانت هذه الغلالة من نسيج ، لقبلتها ذرة ذرة . ولم لا ؟ الم اقبل وشاحك مرة خيطا خيطا. انظري الى نثيث المطر هذا . انه لا يختلف عن نثيث الثلج في لندن، ولا نثيث الغبار في بغداد. لا تتعجلي المصير، فانا لك، ان لم اكن بجسدي فبروحي ، أتفهمين ؟

– لكني لا اقدر على فراقك . بل ولا على وداعك . ان تلك الساعة التي سأودعك فيها ستكون اقسى ساعة من ساعات حياتي . ستكون امرّها ، وستظل لوعتها تتردد في صدري . ولن انساها ، ستحرقني كلما تذكرتها . انت ستنساني بالتأكيد . لن تتذكرني ابدا. ستتزوج حسناء بغدادية تدق بقبقابها الخشبي بلاط دارة البيت، الاصفر من كثرة الغسيل.

ربما صدق تخمين خوليانة ، ونحن ما زلنا تحت وابل نثيث المطر عند ميناء قادش ، والمياه ما تزال تمطر علينا من البحر كما تمطر علينا من السماء ، فيختلط رذاذ البحر برذاذ المطر ، فنمصه ماء مليحا ، وهي ما زالت تحن الى البكاء . ولكنها كانت تعلم بان بكاءها سيرحمني ، وهي اليوم تريد ان تثيرني . كتمت مشاعرها وانفعالها ، وابتلعت عيناها الدمعتين اللتين كادتا ان تتحدرا .

– ساذكرك يا فاضل ، وقد اخذت منك اعز ما تحب ، ما سيذكرني بك مدى العمر ويذكر اهل اسبانيا بك . لقد اخذت قطعة من جسمك، صورة منك، من حبك وكرهك وثورتك وتمردك ووداعتك والفتك . لذا ساتذكرك ، كما ستنساني تماما .

لم اصدق ما قالت اول وهلة . لقد عجبت كيف تمكنت طيلة شهرين ان تخفي هذه السرقة. لقد سرقتني في وضح النهار. لم ادرِ ماذا افعل آنئذ. لقد انصدعت فعلا، وتصدعت افكاري . ولاني احبها ، لم ارد ان اغضبها . لم ارد ان ارجع ما سرقته مني . وكيف اتمكن ؟ هي سترفض وانا ساتشبث . ولن يفيدني تشبثي شيئا، لانها ستتملص وانا لا اريد ان اجبرها ، لا اريد ان ارغمها على ان تكرهني، على ان تبغضني . فلشد ما كانت وديعة معي ، اليفة لي . لم تغضبني قط عن قصد ، وحتى حينما كانت تغضبني بدون قصد، فانها سرعان ما كانت تشعر بالاثم ، كأنما هي قد كفرت ، فتروح تستغفر .

قادش مقفرة من الناس ، احاطتها العاصفة بصمت ووجوم مهيبين . السيارات كأنها نساة يقبعن عند ارصفة الشوارع ليستعطفن الاكف ، فقد ذهب سائقوها وبقيت وحدها لا تنتظر الراكبين. لم يبق في الشوارع احد، حتى الازقة لم نرَ فيها احدا. سوى الاطفال الذين كانوا يتحدون العاصفة والمطر والمياه وهم يضحكون ، يمدون رؤوسهم من الابواب ومن النوافذ ، ثم ينسحبون وهم يصرخون جذلا . وكان منهم من يخرج الى عتبة الباب ويجتاز الرصيف ليخوض قليلا في الماء ، وهو يتحدى رفاقه ، لكنه لا يقدر على المقاومة، مع ان معطف ابيه او اخيه الكبير على رأسه يلف به جسمه فلا يبين سوى عينين وانف .

كنا قد قررنا الرجوع ، لكن الحافلات تعطل سيرها ، وارجئت مواعيد سفرها. فلم يبق الا ان نرجع بالقطار كما اتينا ، وهذا يعني اننا سنصل مدريد في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . ولاول مرة رأيت خوليانة ساهمة واجمة ، طيلة الطريق بين قادش ومدريد. لاول مرة اراها تعزف عن الضحك . ولم اتمكن من التخمين آنئذ بسبب ذلك، ولم اتمكن من تصور ما يدور بخلدها . وحينما كنت اسألها كانت تقتضب الاجابة وتوجز في الكلام ، كأنما لم اكن بجانبها . لكنها لم تكن تبدو غاضبة ولا منزعجة ، كان يغلب على مرآها التأمل . وظللت في المقصورة كأنما انا وحدي، ومع ذلك غالبت النعاس ، ولم اتمكن ابدا من جرها الى الحديث ، وكأنها كانت قد اعلنت الاضراب عن الكلام طيلة ما نحن في القطار . ام انها تريد ان تضرب عن الكلام الى الابد؟ لم اكن اعلم ما تخبىء لي ، لذلك سكتّ .

في المحطة التالية صعدت شابتان وجلستا قبالتنا، وكانت امائر البشر تلوح على وجهيهما. لم تكونا من فتيات الليل ، وكانت ملامحها اميل الى مظاهر الطالبات منها الى مظاهر الموظفات . وسرعان ما اجتذبتاني الى الحديث ، ولكنهما لم تتمكنا ايضا من اجتذابها . بعدها لم اشعر بالوقت الذي مر بنا . فلقد خضنا فيه في مواضيع شتى ، ولكن جلّ الحديث انصب على مؤتمر يالطة وتوقع نتائجه في انهاء الحرب. وقبل ان نتمكن من الانتهاء من الحديث، كان القطار قد توقف ، واذا بنا في محطة مدريد. ولكن خوليانة تغيرت تماما حينما وصلنا مدريد. برقت شفتاها بخيال ابتسامة ترف على وجنتيها، وسرعان ما انطلقت اساريرها. لقد تقصدت التريث في النزول حتى تنزل الشابتان، وقبل ان اهم بدعوتها للنزول اقتربت مني وهي ضاحكة العينين . قرأت فيهما كل معاني الحب واللوعة . ضممتها الى صدري ،فاذا شفتاها تغطيان شفتيّ ، واذا بي استنشق انفاسها ، فاهتصرت ضلوعها بين ذراعيّ ، وكانت كأنما هي تودعني ولا تريد ان تودعني . لا تريد ان تنزل من القطار بل تريد ان نظل فيه ، لتظل الى جانبي لا تفارقني . كانت تخاف الفراق كما كنت اخاف الاغتراب حتى وقعت فيه. هكذا كانت تقول لي كلما جلسنا في مقهى مادريانا بعد الرجوع من مرقص سومبريرو . كانت في كل ليلة ترفض توديعي ابدا، انما تقول لي : الى اللقاء، وفي بعض الاحيان لا تقول اي كلمة . لقد كانت غريبة ، اسطورية. لذلك احببتها كما احببت نفسي ، واحببت الاسطورة .

ونزلنا من القطار فالتفتت اليّ : لن اذهب الى بيت ابي هذا اليوم . وقعت هذه الجملة عليّ وقع الصاعقة. ماذا؟ انت التي لا يمكن ان تفارقي اباك لحظة واحدة، انت التي كدت تبكين حينما ذهبنا الى قادش لانك فارقت اباك تلك الساعات ، ولانك قلت انه سيقضي بعض ليلته بدونك ، سيطبخ الطعام بيده، قلت انك لا تطيقين ذلك وانك تحبين اباك كما

حبيبتني . ماذا جرى لك اليوم يا خوليانة ، ايتها الغريبة ، ايتها الاسطورة؟ — وهذا هو
سم المحبب الذي كنت اطلقه عليها حينما اود مداعبتها . مع ذلك رفضت العدول عن
أيها. قالت: سأذهب الى بيت خالتي في المدينة القديمة. ما اغرب هذا اليوم ! وما اغرب
ذه السفرة ! صارت هذه السفرة اسطورة ايضا من الاساطير. وبعد مسيرة عشرين دقيقة
سيارة اجتزنا قنطرة شقوبية ، فآثرت النزول من السيارة ، لانه لم يبق الى بيت خالتها
وى بضع مئات من الامتار . كنت اداعبها في العادة حين نكون راجعين، بشراء كيس
ن الحلوى فتأخذه وهي تنظر اليّ ، ثم نضحك سوية. توقفت عند حانوت يفتح حتى ساعة
تأخرة لاشتري لها كيس الحلوى. ولانشغال الحانوتي ، تعطلت امامه قليلا، وحينما اردت
لحاق بها لم اجدها . رحت ابحث يمينا وشمالا، فرأيت على بعد شبحا يغذّ السير، عرفت
نه هي، لكنها ما عتمت ان دخلت زقاقا من تلك الازقة الشعبية الضيقة في مدريد القديمة.
كن عجبي ازداد حينما انتهيت في هذا الزقاق الى مفترق طرق اربع ، لم ادرِ في ايتها
ذهب . ومع ذلك اخترت واحدة ، وحينما سلكتها ، وانا اكاد اجري ، لمحتها عن بعد .
لا شك ان صياحي لن يجدي شيئا، فهي قررت ان تهرب مني بالتأكيد، والا لمَ لم تتلفت
ان كانت قد ملت الانتظار ؟ لم تمل الانتظار ، لان ذلك لم يبدُ عليها ، ولانها لم تحاول
حتى التلفت . وعند اول منعطف بعد ذلك ، لم ارها ابدا ، رغم كون ذلك الزقاق ممتدا
باستقامة تماما، ومع ان ابواب البيوت كلها كانت مغلقة .

في المساء التالي ذهبت الى ابيها اسأله عنها . ولشد ما كان عجبي عظيما عندما اخبرني
بانها لم تعد الى البيت بعد ، ومنذ يومين . بدا الرجل متأثرا جدا ، وكادت تنفرط حبات
دموعه ، لكنه اغمض عينيه . وكمن يتذكر قال : هل كُتب عليّ ان اعيش وحيدا مرة
ثانية ؟ لا شك انها قتلت. لو كانت حية لم تتأخر. لم تتأخر ابدا ساعتين عن مواعيدها،
فكيف تأخرت يومين ؟

— لقد قالت بانها ذاهبة الى بيت خالتها في مدريد القديمة بعد قنطرة شقوبية .

— من قال ذلك ؟ هي ليست لها خالة في مدريد . ليس لها اقارب في مدريد ابدا.

ومع ذلك ظللت امر على الرجل طيلة شهر كامل، وانا اسأله عنها واخفف من احزانه.
وظللت طيلة هذا الشهر اجلس في مقهى مادريانا وازور مرقص سومبريرو، فلم اعثر لها على
اثر . انت لست مثلها يا بثينة ، سامحيني ان رددتك . فانت لن تبعثي في النفس نبضة
خلاقة تحن لمولد جديد. وانت لست اختلاجة معطاءة ترف رفيف ساعات الالهام ، اتأملها
في ارتداد الانسان الى فلك الاوهام بعد ان اسلم زمام اموره الى دوامة غير عاقلة. سامحيني
يا بثينة ، وكفكفي دموعك ، فانا في انتظار حمدية . لاني سأرى بها خوليانة . كما تراني
هي الآن في مدريد ، وتتمثلني . وتضحك وتبتسم وهي تتألم .